مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ر ت م د: 7163 -1112 ر ت م د إ :2588-1892
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2

آليات الحجاج شبه المنطقيّة في خطب البشير الإبراهيمي

Semi-logical mechanisms of arguing in the speeches of Al-Bashir Al-Ibrahimi

علي طرش

جامعة 8 ماي 1945 قالمة، إيميل: alias12370@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/11/30 تاريخ القبول: 2021/03/23

ملخص:

يهدف البحث إلى تتبع آليات الحجاج في الخطاب الإصلاحي في فترة الاستعمار من خلال خطب واحد من أهم رواد الإصلاح في الجزائر وهو البشير الإبراهيمي، عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وذلك لمعرفة أهم المرتكزات المعرفية التي استند إليها الخطاب للوصول إلى عمق المجتمع الجزائري والتأثير فيه للحفاظ على الخصائص الوطنية المميزة، والتصدي للمستعمر.

وقد وصل البحث إلى جملة من النتائج، لعل أبرزها هو اعتماد المرجعية الإسلامية في المحاججة، وذلك للوصول إلى أكبر قدر ممكن من الشعب، كما أنّ الحجاج عنده نشاط إقناعي يتخذ صورة خطاب إصلاحي تشكله عوامل ذاتية واجتماعية ومعرفية، وتحدده قدرات بلاغية وظفت كل العوامل المتاحة من قبله للوصول إلى غايات محددة.

الكلمات الدالة:

الحجاج، آليات الحجاج، خطب البشير الإبراهيمي.

المؤلف المرسل: علي طرش alias12370@yahoo.fr

Abstract:
The research aims to follow the mechanisms of reform discourse in the colonial period through the speeches of one of the most important pioneers of reform in Algeria, Al-Bashir Al-Ibrahimi. He was member of the Association of Algerian Muslim Scholars. In order to know the most important Knowledge bases on which the discourse was based to reach the minds of Algerian society and influence it to preserve the distinctive national characteristics, and to stand up to the colonizer.

The research reached a number of results, perhaps the most prominent is the adoption of Islamic reference to argue in order to reach as many people as possible. Moreover, arguing has a convincing activity that takes the form of a reform discourse which is constituted by subjective, social ,and cognitive factors ; and it is defined by rhetorical capacities that employed all the factors available to it to reach specific targets.

Key words:
arguing, mechanisms of arguing, Al-Bashir Al-Ibrahimi speeches.

1 - مقدمة:

إنّ الخطاب الإصلاحي الذي قدمه البشير الإبراهيمي، يدعو إلى مشروع الكائن الإنساني الفاعل في مجتمعه، والمحقّق لذاته، والمتحرّر من الوهم والخرافة التي حاول المستدمر زرعها فيه. وحتى يحقّق هذا الخطاب غاياته، اعتمد على استراتيجيات الإقناع المختلفة بتقديم الأدّلة والبراهين، من خلال توظيف آليات لغويّة وأخرى بلاغيّة، وذلك للوصول إلى الهدف المنشود منه، وهو ما سنحاول تسليط الضّوء عليه من خلال كشف جملة من الآليات والوسائل التي وظّفها الإمام الإبراهيمي ليحتّج لرأي، أو ليدحض فكرة، ساعيا إلى إقناع المتلقي بما يدعو إليه، وهو أمر سيقودنا إلى دراسة بعض خطبه في بنياتها اللغوية من منظور تداولي.

وقد ثبت اختيارنا في هذا المقال على مدونة تضمنت توجيهات، ودعوة إلى الإصلاح على جميع الأصعدة الحياتية، وسبب اختيارنا لهذه المدوّنة عائد إلى ما فيها من قوّة حجاجيّة إقناعيّة، ولما عرف عن البشير من فصاحة وبلاغة، وقد حصرنا الدّراسة في أربع خطب حتى نتمكن من دراستها بشكل معمّق، اخترناها متنوعة المضامين: (دينيّة واجتماعيّة وسياسيّة).

وحاولنا من خلال البحث تحقيق العديد من الأهداف أهمها:

❖ الإحاطة بمختلف المفاهيم والعلاقات التي تجمع بين الخطاب كنشاط تواصلي وبين الوظيفة التي تؤدّيها اللّغة أثناء الاستعمال والتّداول.

❖ استقراء آليات الإقناع **شبه المنطقيّة** التي وظّفها البشير في سبيل تحقيق أهدافه الإصلاحيّة.

فكانت دراسة موجزة تحت عنوان :الآليّات شبه المنطقيّة في خطب البشير الإبراهيمي، وقد كان المنهج المتّبع هو المنهج التّداوليّ، فما هي الآليات شبه المنطقيّة بداية؟

2 - الآليات شبه المنطقيّة:

2 -1 - السّلم الحجاجيّ:

يعرّف السلّم الحجاجيّ على أنّه:" مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبية ومستوفية للشّرطين التّاليين:

1 -كلّ قول يقع في مرتبة ما من السّلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطّرف الأعلى جميع الأقوال الأخرى.

2 - كلّ قول في السّلم كان دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه"[1]

وللسلّم الحجاجيّ قوانين أجملها طه عبد الرحمان في ثلاثة نلخصها كما يلي:[2]

أ - قانون القلب: ومعناه، أنّه إذا كان أحد القولين أقوى من القول الآخر في التّدليل على مدلول ما، فإنّ نقيض الثّاني أقوى من نقيض الأوّل في التّدليل على نقيض المدلول.

ب - قانون النّفي: ويعني، إذا كان القول دليلا على مدلول ما، فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله.

ج - قانون الخفض: ومقتضاه، إذا صدق القول في مراتب معينة من السّلم، فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.

---

[1] طه عبد الرحمن، (1998) ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص 277.

[2] المرجع نفسه، ص 277 -278.

3 - الأدوات اللغويّة للسّلم الحجاجيّ:

3 -1 - الرّوابط الحجاجيّة: هي عناصر لغويّة فعّالة في الحجاج، وتسهم إسهاما كبيرا في انسجام الخطاب وتماسكه، إذ أنّه" هناك بعض الأدوات اللغويّة التي يكون دورها هو الرّبط الحجاجيّ بين قضيّتين، وترتيب درجاتها بوصف هذه القضايا حججا في الخطاب" [3]

فكلّ خطاب يحمل هذا النّوع من الروابط التي تجمع بين القضايا، ينتج عنه سلّم حجاجيّ يعمل على ترتيب هذه القضايا حسب قوّتها الحجاجيّة، ومن بين هذه الرّوابط: لكن، وبل، وحتى، والواو، ولأنّ.

أ – لكنّ:

وهو حرف استدراك، أي إثبات حكم للمحكوم عليه بعدها، يخالف الحكم الذي للمحكوم قبلها، ولذلك يجب أن تسبق بكلام ملفوظ أو مقدّر، ويجب في هذا الكلام أن يكون نقيضا لما بعده أو ضدّا له. [4]

وتكمن حجاجيّة "لكنّ" في أنّها " تستعمل كمؤشّر حال للاحتياط والتحفّظ من النّتيجة، فيكون – غالبا - ما بعدها من احتياط وتحفظ مؤديا إلى نتيجة مناقضة وداحضة لنتيجة سابقة في بنية الحجاج"[5]

وقد ورد هذا الحرف في خطب البشير للغاية المذكورة في قوله:

" ... وهو حقّ في أصل الشّريعة، **ولكنّ** الإسلام لا يعطي هذه الحقوق أو هذه الامتيازات إلاّ للمسلم الصّحيح الإسلام"[6]

---

[3] عبد الهادي بن ظافر الشهري، (2004) ، استراتيجيات الخطاب (مقارنة لغوية تداولية)، دار الكتب الوطني، بنغازي، ليبيا، ط1، ص 508.

[4] محمد أسعد النادري، (2007)، نحو اللّغة العربية، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص 397 -398.

[5] حمدي منصور جودي، (2008/2007) ، خصائص الخطاب الحجاجي وبنياته الإقناعية في أعمال البشير الإبراهيمي، دراسة لنماذج نصية مختارة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ص 148.

[6] البشير الإبراهيمي، (1997) ، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ج 3، ص 299.

إنّ الغاية من الاستدراك هنا هي التّحديد، وذلك لكي لا يلتبس الأمر على المتلقّين فالإسلام يعطي العصمة للمسلم صحيح الإسلام، وليس أيّ مسلم، وهنا عاب البشير على الفقهاء تقصيرهم في فهم مقاصد الشّريعة، فأعطوا العصمة لكلّ مسلم، والحقّ عند الإبراهيمي أنّ العصمة لا تعطى إلا لصحيح الإسلام. وهنا تحفظ على حكم، وتصحيح لوضع، واستدراك للأمر، أما في قوله:

" ... إنها لكبيرة أن ينشأ الشاب على الخير والاتصال بالله من الصغر، **ولكن** جزاءها عند الله أكبر ..." [7]

إن الاستدراك هنا، ليس لتصحيح وضع، بل للاستغراق والتوكيد، وجيء بلكن لجذب المتلقي ومفاجأته، وهنا مثال مغاير للأول، حيث لا تؤدي "لكن" وظيفة التصحيح، بل هي لتأكيد الوضع الأول.

أما في قوله:

" ونقترف في حقهم ولا نعترف بظلمنا إياهم، ونرخي في تربيتهم أو نشدد، و **لكننا** لا نقارب ولا نسدد.و نعطيهم من أفعالنا ما نمنعهم منه بأقوالنا"[8]

ففي هذا القول إتيان بقول أقوى من الأول، فالسلوك الأول صحيح، ولكن ينقصه أن يدعمه المربي بالفعل الذي يطابق القول، وإلا كانت التربية ناقصة. وهنا معنى جديد للكن، أما في قوله:

" ... إلا أنه في الإسلام الشرعي نوعا من معنى الإسلام اللغوي، **لكنه** أرفع تلك المعاني وأعلاها..."[9]

وهنا استدراك لا يقلب المعنى، بل يخصص ويدقق، فينطلق من العام إلى الخاص، فالإسلام الشرعي أرفع من معناه اللغوي، لأن الشرع مرتبط بوحي، واللغة مرتبطة بمعاني يضعها الإنسان والوحي الرّباني أقوى بلا شك من الفهم الإنساني، إلا إذا تعلق الأمر بإلهام الفهم، وهنا يتحول الفهم إلى نوع خاص من الوحي.

[7] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 270.

[8] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 267 -268.

[9] المصدر نفسه، ص 269.

فالاستدراك يكون على أشكال عديدة، ويمكن لـ "لكن" أن تؤدي عدة أدوار على اختلاف السياقات، كما رأينا من خلال الأمثلة السابقة، وتكمن حجّيتها في كونها تفاجئ المتلقي بمعنى جديد يخالف أو يزيد على المعنى الذي كان قبلها.

ب/ حتى:

وهي من أدوات السلم الحجاجي، لدورها في ترتيب منزلة العناصر، ولما تدل عليه استعمالاتها المختلفة من تدرج في توجيه الحجج، وأولى استعمالاتها ما يعرف بـ (حتى الجارة)، وتعني انتهاء الغاية ولا تجر إلا ما هو قبله، أو ملاق للآخر[10]

وعلى المرسل التحقق من مجرورها في التركيب، وهي:

1/ أن يكون المجرور ظاهرا في الغالب.

2/ أن يكون آخر جزء أو ملاق لآخر جزء، وأن يكون المجرور بها داخل فيما قبلها -على الغالب - وأن يكون الانتهاء به أو عنده.[11]

وثاني استعمالاتها ما يعرف بـ (حتى العاطفة)، ولها شرطان:

1/ أن يكون بعض ما قبلها أو كبعضه.

2/ أن يكون غاية لما قبلها في زيادة، والزيادة تشمل القوة والتعظيم والنقص يشمل الضعف والتحقير.[12]

ويبرز هذا الربط في قول الإبراهيمي:

" وشرّع له من المخففات ما يهون وقعه كالتمتيع ومد الأمل بالمراجعة، وتوسيع العصمة إلى الثلاث، **حتى** تمكن الفيئة إلى العشرة..."[13]

وفي هذا المثال تلعب **حتى** دور العطف، فتعطف غاية ما قبلها عليه، والمعنى أن تشريع المخففات هو لغاية تمكن الفيئة إلى العشرة. فالطلاق لا يتم إلا في وجود أمل بالمراجعة، فإذا حصل وانتهى كان سراحا جميلا وتسريحا بإحسان.

فالغاية أن يكون الرابط بين الزوجين حبلا غليظا لا يفك إلا لحكمة أقوى من حكمة المواصلة.

---

[10] محمد أسعد النادري، نحو اللغة العربية، ص 534.

[11] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 512.

[12] محمد أسعد النادري، نحو اللغة العربية، ص 603 -604.

[13] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 297.

والمحاججة هنا هي لتبيان رحمة الإسلام التي تحافظ على الحرية الفردية دون محاولة المساس بتماسك الأسرة، وتلعب "حتى" في هذا السياق دورا حجاجيا هاما.

ونجدها كذلك في قوله:

" ... الذين طووا المراحل ودنوا من الساحل **حتى** أوهموا الشبان أن الشباب عصمة لهم من الموت..." [14]

وهي، كما في المثال الأول، تعطف على ما قبلها غايته ونتيجته، فالاعتزاز بالشباب سبيل قد يؤدي إلى الانحراف عن الطريق، حتى يظن الشباب أن الموت بعيد عنهم قريب من الشيوخ، فيقبلون على المعاصي من غير خوف ولا وجل، وعمل "حتى" هو نفسه في قوله:

" وأنا أرى الشباب أحق الناس بذلك الوعظ وبالتوجيه إلى الله وبالتعهد المنظم، والحراسة اليقظة، **حتى** تكون أقوى الملكات التي تتربى فيهم ملكة الخوف من الله..." [15]

فلا تكون ملحة الخوف من الله أقوى في قلوب الشباب إلا بعد أن يتم توجيههم وإرشادهم بحرص.

وكذلك في قوله:

" ... الانتخابات في نظر الأمم الحية كميدان المصارعة الرياضية، لا ينتهي المتصارعان **حتى** يتصافحا على الوفاء للفن..." [16]

لا تكون انتخابات لدى الأمم المتطورة إلا ويكون الطرف المهزوم فيها راضيا بالنتيجة متقبلا للآخر بروح رياضية، وهذه هي قيم المحبة والتسامح التي دافع عنها البشير الإبراهيمي في مشروعه الحضاري الرّامي إلى النهضة بالشباب ومن ثم النهضة الوطنية.

ج/ بل:

وهو حرف إضراب، وله حالان: الأول أن تقع بعده جملة، والثاني أن يقع بعده مفرد، فإن وقعت بعده جملة كان إضرابا عما قبله، إما على جهة الإبطال، وإما

[14] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 269.

[15] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 270.

[16] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 302.

على جهة الترك للانتقال من غير إبطال، وإذا وقع بعد "بل" مفرد، فهي حرف، ومعناها الإضراب، ولكن حالها فيه مختلف؛ فإن كانت بعد نفي فهي لتقرير حكم الأول، وجعل ضده لما بعدها. [17]

وتتجلى حجاجيتها في أنها "تساعد في ترتيب الحجج في السلم، ومن مميزاتها تعاكس حجيتها، فمنها المنفية ومنها المثبتة... كما تملك ميزة الانتقال من درجة دنيا في الحجاج إلى درجة أعلى"[18]

ومن الأمثلة على ذلك في خطب الإبراهيمي، ما ورد في قوله:

" القرآن إصلاح شامل لنقائص لنقائص البشرية الموروثة، **بل** اجتثاث لتلك النقائص من أصولها..."[19]

إن الاستدراك باستخدام "بل" مثير لانتباه المتلقي ومؤثر فيه، لأنه يربط بين حجتين تكون الثانية أقوى من الأولى، فينسخ حكما بآخر أقوى منه، وكذلك نجدها في قوله:

" هذه شهادة الأرض تؤديها صامتة فيكون صمتها أبلغ في الدلالة... ويفسرها العيان الذي تحجبه بضعة عشرة قرنا، **بل** إن هذه الأمة استقامت في مراحلها الأولى على هدي القرآن..."[20]

إلا أنه في هذا المثال لا تكون "بل" بالقوة ذاتها التي في المثال السابق، لأن دورها هنا أشبه بتوكيد ما قبلها لولا أن ما بعدها أقوى حجة من الكلام قبلها وأصح، فيأتي هذا الحرف بكلام يصحح به مسار الكلام الأول دون أن ينفيه أو أن يناقضه، ونجده في موضع آخر يقول:

"... وإنكم لتعرفونهم بسيماهم وتعرفونهم في لحن القول، فأخرجوهم من الصفوف... وإن إخراجهم لا ينقص عددا ولا يقطع مددا، **بل** يقطع دابر الفساد من صفوفكم..."[21]

نلفت النظر فقط، إلى أن هذه الفقرة أخذت بعض معناها من قوله تعالى:

---

[17] محمد أسعد النادري، نحو اللغة العربية، ص 612.

[18] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 512.

[19] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 95.

[20] المصدر نفسه، ص 94.

[21] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 302.

"ولو نشاء لأريناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم ولَتَعْرِفَنَّهُم في لحن القول والله يعلم أعمالكم" محمد آية 30.

ولو لاحظنا الأمثلة السابقة جيدا لأدركنا القيمة الحجاجية لـ "بل"، إذ أنها تأتي بحجج بعدها أقوى وأشمل من الحجج التي سبقتها، بل تبين أيضا ضعف ما قبلها مقارنة بما بعدها.

وفي المثال الأخير تمثلت الحجة الأولى في أن خيانة البعض لا تنقص في المؤمنين عددا إن هم أخرجوا المنافقين من صفوفهم، لأن في إخراجهم إصلاح وقطع للفساد.

د/ الواو:

يعد الواو من أهم الروابط الحجاجية، إذ ليس له دور الجمع بين الحجج وحسب، بل يقوي الحجج بعضها ببعض لتحقيق النتيجة المرجوة، فالواو رابط حجاجي مدعم للحجج المتساوقة أو المتساندة.

ويستعمل الواو حجاجيا، وذلك بترتيب الحجج ووصل بعضها ببعض، بل وتقوي كل حجة منها الأخرى، وتعمل على الربط النسقي أفقيا على عكس السلم الحجاجي.[22]

والأمثلة في الخطب المختارة للدراسة عديدة، نذكر منها بعض الأمثلة، ومنها قول الإبراهيمي:

" القرآن هو الذي أصلح النفوس... وحرر العقول من ربقة التقاليد السخيفة، وفتح أمامها ميادين التأمل والتعقل... والقرآن هو الذي أصلح بالتوحيد ما أفسدته الوثنية..."[23]

فالرّابط الحجاجي هنا، وهو الواو، قام بالربط بين الحجة والأخرى، كما قام بترتيب هذه الحجج، لتقوية وتدعيم النتيجة، فالحجج جاءت منسقة مترابطة، كل حجة تساند وتقوي الحجة التي تليها. والمعنى هنا أن القرآن الكريم هو الذي حرّر العقول من الخرافات ففتح المجال للتّدبر في ملكوت الله، كما أنه هو الذي أصلح ما أفسدته الوثنية. وقد جاءت هذه الحجج متتالية يساند بعضها بعضا من أجل تقرير نتيجة مفادها أن الإسلام هو دين العدل

[22] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 472.

[23] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 94.

والمساواة والتفاضل فيه يكون فقط بالأعمال الصالحة التي تنفع الإنسانية، أما في قوله:

" ... وتذوقته بلقيس حين هداها الله فقالت: أسلمت، ألا وإن في الإسلام نوعا من المعاني لم يتخيله وضع ولا عرف، ولم يتداوله نقل ولا استعمال حتى جاء محمد بالهدى ودين الحق..." [25]

هنا أيضا نلاحظ أن الحجج جاءت مترابطة بفضل الرّابط الحجاجي المتمثل في "الواو"، وقد أراد الإبراهيمي أن يقول، أن في الاستسلام لله نوعا من المعاني لم يعرفها الإنسان من قبل، كما لم تداول نقلا ولا استعمالا بين بني البشر حتى جاء بها الرّسول صلى الله عليه وسلم.

وهي حجج من أجل الوصول إلى نتيجة واحدة وهي أنه بمجيء النبي محمدا صلى الله عليه وسلم تحققت سعادة الإنسان وتذوق حلاوة الإيمان، أما في قوله:

" ... تصحبها دعايات يلعن بعضها بعضا، ولا تنتهي حتى تقطع ما بقي من أواصر هذه الأمة الضعيفة، وتأتي على ما بقي من وشائج القربى وصلات الأخوة..." [26]

وظف البشير الإبراهيمي الواو هنا لسوق الحجج متتالية ليدعم رأيه الذي يقول أن قضية الانتخابات في الدول العربية، وقد أضحت ميدانا للعان والسبّ والشّتائم بعيدة كل البعد عن التّحضر، بل إنّها ستهدم بنيان الأمّة وتقود المجتمعات إلى نتيجة حتمية هي انقطاع رابط الأخوة بين أبناء الوطن الواحد، وهذا ما سيؤدي إلى خراب هذه الأوطان.

هـ/القصر باستعمال الأداتين: "ما ...إلا"

يعد القصر باستعمال " ما... إلا" من أدوات السلم الحجاجي لأنّه من التراكيب التي تترتب فيها الحجج حسب درجتها الحجاجية [27]

ونجد استخدامها من قبل الإبراهيمي في قوله:

" ... **وما** وصفه في القرآن بالسراح الجميل والتسريح بالإحسان **إلا** تلطيف إلهي في أسلوب معجز..." [28]

---

[24] المصدر نفسه، ص 269.

[25] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 302.

[26] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 519.

فالقضية هنا بنيت على نتيجة مفادها أن وصف القرآن للطلاق بهذه الصفات المحببة والرقيقة هو لطف من المولى عز وجل بعبادة ورحمة لهم.

أما في قوله:

" ... **وما** جاء سوء الفهم **إلا** من سوء التفهم من الفقيه..."[27]

وقد طرح البشير الإبراهيمي النتيجة قبل سوق الحجج، حيث بيّن أن سوء فهم الفقهاء للدّين هو الذي أدى إلى تعدي المسلمين حدود الله في الطلاق، حتى أصبح هذا الأمر متفشيا بين النّاس لأبسط خلاف فيكون طلاق الزوجين وتفكك الأسرة وضياع الأولاد وما هذا إلا لجمود الفقه والفقهاء، أما في قوله:

" ... **ما** هذه الفوضى وهذا الإضراب **إلا** عقوبة من الله لكم وغيرة منه على أحكامه..."[28]

فهنا أيضا قدمت النتيجة على الحجة، وتتمثل في كون الفوضى والاضطراب الذي يحصل بين المسلمين هو أمر سلبي، والحجة على هذا الوضع هو أن عقوبة من الله سلطت عليهم نتيجة إعراضهم غيرة منه على أحكامه.

3 -2 - درجات التوكيد:

للتوكيد درجات ثلاث تستعمل في إنتاج الخطاب الخبري، ويصنفها السكاكي وفق سياقات ثلاثة:[29] الخبر الابتدائي، والطلبي والإنكاري.

فالخبر الابتدائي لا يستعمل أي نوع من أدوات التوكيد، لأن ما يقدمه المرسل هو بمثابة المتفق عليه بالإجماع بين الناس، مما يجعل خطابه غنيا عن المؤكدات؛ أما الخبر الطلبي، فيعمد فيه المرسل إلى التوكيد بهدف تحفيز المرسل إليه للقيام بالدعوى المفتوحة، غير أن الخبر الإنكاري هو الذي يعمد فيه المرسل إلى تعزيزه بأدوات التوكيد كالقسم واللام المؤكدة، لتثبت صدقه وتبعد شك وإنكار المرسل إليه.

---

[27] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 297.

[28] المصدر نفسه، ص 299.

[29] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[30] أبو يعقوب السكاكي، (1987) ، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، ص 170 -171.

وسنحاول أن نسوق لكل نوع مثالين من الخطب المنتقاة للدراسة، ونبدأ بالخبر الابتدائي في قول الإبراهيمي:

"... شاع بين الناس مبدأ فطري توارد عليه المحدثون والقدماء، ونصره الحس، وهو أن الكبير قريب من الموت..."[31]

نجد الإبراهيمي في هذا الموضع اكتفى في كلامه بأول درجات سوق الخبر دون تأكيد، لأن فحواه بمثابة المسلمات التي يقف عليها جميع الناس وهي وإن كانت خاطئة في ذاتها فإنها تمثل لدى الناس مسلمة يسيرون مطمئنين بها، غير أن الموت يمس الكبير والصغير والصحيح والعليل على حد سواء. والأمر نفسه في قوله:

"فالله أرحم من أن يكلف عباده تحمل هذا النوع من العذاب النفسي، وهو الجمع بين قلبين لم يأتلفا..." [32]

فمهما بلغت درجة رحمة العباد بعضهم ببعض لن تكون بمقدار رحمة الله بعباده وهو خالقهم وأدرى بما تهيم به أفئدتهم من عذاباتهم، لهذا يسّر في الدّين ولم يعسر وجعل الطلاق راحة للطرفين أحدهما أو كلاهما.

أما فيما يخص الخبر الطلبي، فنجد مثالا لذلك في قول الإبراهيمي:

"**إن** تلك الفئة القليلة من أصحاب محمد ما فتحوا الكون بقوة العدد والعدد..." [33]

فهو في هذا الصدد يحاول أن يؤكد على أن الظفر بالانتصار لا يكمن في العدد وإنما في قوة الروح المشبعة بتعاليم القرآن واستخدم لتأكيد ما جاء به "إن" لتعزيز خبره، ونجد في قوله أيضا:

"...فاحمليها على الاتحاد باسمك **إنها** إنْ اختلفت كنت أنت الخاسرة على كل حال..." [34]

[31] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 269.

[32] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 297.

[33] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 271.

[34] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 303.

والخطاب في هذا المقام موجه إلى الأمّة الجزائرية عامة وإلى أرباب الأحزاب والسياسة خاصة يدعوهم إلى الاتحاد مؤكدا أن تفرقهم واختلافهم خسارة للجميع، أما عن الخبر الإنكاري فنجد مثالا لذلك في قول الإبراهيمي:

"... ولا أرضا مما يرث الوارثون، **وإنّما** هي خلال وخصال... **وإنّما** هي مآثر وتشييد أمجاد...**وإنّما** هي مساع من الكرام إلى المكارم"[35]

حيث يظهر جليا في هذا الموضع اعتماد البشير الإبراهيمي على الخبر الإنكاري لما فيه من طاقة حجاجية تساعد على التحفيز والمبادرة إلى تحصيل الإقناع بأن العروبة يجب أن تراعى من قبل الشباب المسلمين ولذلك استعمل أكثر من خبر مؤكد في قوله (وإنما هي... وإنما هي... وإنما هي...)، ويتضح ذلك أيضا من خلال قوله:

"... **إن** دينكم شوهته الأضاليل **وإن** سيرة نبيكم غمرتها الأباطيل **وإنّ** كتابكم ضيعته التآويل"[36]

حيث عمد أيضا إلى سوق أكثر من خبر مؤكد، وتبرز القيمة الحجاجية للخبر الإنكاري المشفوع بأخبار مؤكدة في محاول البشير تحذير الشباب العرب والمسلمين من الخطر المحدق بالدّين الإسلامي حيث شوهته الأضاليل وطغت عليه الأباطيل التي من شأنها أن تعزز الطائفية فتؤدي إلى ضياع المسلمين.

4 - آليات السلم الحجاجي:

لا يقتصر ترتيب الحجج في سلم واحد على استثمار بعض الأدوات ذات المعاني، بل يمكن ترتيب الحجج أيضا باستعمال بعض الصيغ الصرفية وتوجيهها في سياق الإقناع.[37]

---

[35] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 268.

36 البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 271.

[37] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 525.

4 -1 - التعدية:

هي ترتيب الأشياء في سلم يعقد العلاقة بينها رغم وجود هذه العلاقة قبل التلفظ بالخطاب[38] ومنها:

4 -1 -1 -أفعل التفضيل:

وقد عرّف بأنه:" صفة مشتقة على وزن أفعل، تدل على أن شيئين اشتركا في معنى، وزاد أحدهما على الآخر فيه"[39]

والدعائم أو الأركان التي يقوم عليها التفضيل الاصطلاحي في أغلب حالاته ثلاث:

1 - **صيغة أفعل وهي اسم مشتق.**

2 - **شيئان يشتركان في معنى خاص.**

3 - **زيادة أحدهما عن الآخر في هذا المعنى الخاص ولا فرق في المعنى والزيادة فيه بين أن يكون أمرا حميدا أو ذميما[40]، وله ثلاث حالات تجرده من "ال" والإضافة، واقترانه بـ "ال" وإضافته"[41]**

ويتجلى دور أفعل التفضيل الحجاجي في " أنه يتضمن صيغ تمكن المرسل من إيجاد العلاقة بين أطراف ليس بينها أي علاقة بطبعها، كما أنه يمكنه من ترتيب الأشياء ترتيبا معنويا، فبدون استعماله ما كان لها أن تترتب، ولذلك يصنفه بيرلمان في حجاج التعدية.[42]

ومن ذلك ما نجده في قول الإبراهيمي:

"... فلو نطقت الأرض لأخبرت أنها لم تشهد –منذ دحدحها الله - أمة أقوم على الحق وأهدى به من هذه الأمة"[43]

---

[38] حافظ إسماعيلي علوي، (2011) ، التداولية علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، ص 117.

[39] محمد أسعد النادري، نحر اللغة العربية، ص 114.

[40] عبّاس حسن، (د. ت) ، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ج3، ط4، ص 395.

[41] محمد أسعد النادري، مرجع سابق، ص 114.

[42] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 528.

[43] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 93 -94.

ففي هذا السياق يؤكد على أن الأمة المشار إليها في هذا الموضع هي أمّة محمد صلى الله عليه وسلم وللإقناع برأيه اعتمد على أفعل التفضيل التي مكنته من ترتيب أقواله على النحو الذي رأينا، ونجد أيضا في قوله:

"ولو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن... لكان فقهم **أكمل** وآثاره الحسنة في نفوسه **أظهر**، ولكانت سلطتهم على المستفتين من العامة **أمتن** **وأنفذ**..." [44]

نجد الإبراهيمي في هذا الموضع أيضا قد تمكن من ترتيب أقواله وفق سلم حجاجي باستعمال كل من أفعل التفضيل (أظهر، أكمل، أمتن، أنفذ) ليبين أن عودة الفقهاء إلى الدين والتفقه بالقرآن الكريم هو السبيل الوحيد لكمال العقيدة، وجعل الآثار الطيبة في النفوس أبين وأوضح، وهو ما يجعل أيضا لهم حكم القول في القضايا التشريعية، فتكون فتاواهم أصوب وأصلح من فتوى الذّين يدعون الدعوة من عامة الناس، وقوله أيضا:

"وأنا أرى أن الشبان **أحق** الناس بذلك الوعظ، وبالتوجيه إلى الله... حتى تكون **أقوى** الملكات التي تتربى فيهم ملكة الخوف..." [45]

فالبشير استعان بكل من (أحق وأقوى...) ليقنع برأيه وحجّته التي تتمثل في أنّ الشّباب هم أساس المجتمع فإذا صلحوا صلح المجتمع، فلذلك هم أحق النّاس بالإرشاد والإصلاح، محاولا إقناع المتلقي بأن السبيل الصحيح هو بتربيتهم على الخوف من الله.

4 -2 - صيغ المبالغة:

صيغ المبالغة آلية من الآليات الصرفية يستعملها الخطيب ليعبر بها عن درجة الحجة التي يريد أن يدعم بها خطابه، باعتبارها تفيد الكثرة والمبالغة الصريحة في معنى فعلها الثلاثي الأصلي وأشهر أوزانها خمسة قياسية هي (فعّال، مفعال، فعول، فعيل، فعِل) وهناك بعض الصيغ القليلة المقصورة على السماع عند القدماء أشهرها من الماضي الثلاثي فعِيل. [46]

---

[44] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 298.

[45] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 270.

[46] حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج، مفهومه ومجالاته، ص 128.

وتكمن حجاجية صيغ المبالغة في كونها أوصاف تتطلب فعلا معينا، لأن الحجاج لا يهتم بالتصنيف فحسب بل بدلالة هذا التصنيف، ومن الصيغ الواردة ما نجده في قول الإبراهيمي:

"والقرآن هو الذي بلغ بهم إلى تلك الدرجة العالية من التربية، ووضع الموازين... وأفرغ في النفوس من الأدب الإلهي ما صير كل فرد مطمئن إلى مكانه من الجموع، **فخورا** بوظيفته منصرفا إلى أدائها..." [47]

فالبشير الإبراهيمي يشيد بدور القرآن الذي نظّم حياة المسلمين وزوّدهم بالأدب الإلهي وجعل لكل فرد دوره حتى ينظم حياته، وأشار إلى ذلك بصيغة المبالغة فخورا، لأن الإنسان بطبعه مجبول على رفعة النفس متميز عن باقي المخلوقات وذلك من حكمة الله في خلقه، أما في قوله:

"...وبالإغناء من واسع فضله عند التفرق؛ أو من آية تخيير النبي أزواجه بين حالين: أحدهما التمتيع والسراح **الجميل**..." [48]

أراد الإبراهيمي أن يفصل في قضية فقهية انطلاقا من تعاليم ديننا وهي الطلاق داعيا إلى الاقتداء بسيرة الرّسول الكريم وبالقرآن، مستعينا بصيغة التفضيل "جميل" على وزن "فعيل".

4 -3 - حجة الدليل:

تتمثل في الحجج الجاهزة أو الشواهد، وهي من دعامات الحجاج القوية إذا وضعها الخطيب في الموضع المناسب وهنا تتبدى براعته في توظيفها بحسب ما يتطلبه السياق، ويمكن تصنيفها في السلم الحجاجي بالنظر إلى طبيعتها المصدرية، فهي ليست من إنتاج المخاطب بقدر ما هي منقولة على لسانه، ونقلها على لسانه ينبئ عن كفاءته التداولية إذ يكمن دوره في توظيفها توظيفا مناسبا في خطابه وبهذا فهي تعلو الكلام العادي درجة مما يجعلها ترقى في السلم الحجاجي إلى ما هو أرفع [49].

[47] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 95.

[48] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 298.

[49] حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج، مفهومه ومجالاته، ص 128.

ومن ذلك نجد توظيف البشير الإبراهيمي للقرآن الكريم، ومثال ذلك الاحتجاج قوله تعالى: **"الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان"** (البقرة آية 229).

وقوله أيضا: **"ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره"** (البقرة 236)

فالطلاق هنا مرجعيته الأساسية هي الشريعة الإسلامية التي ترجع في أساسها الأول إلى القرآن الذي لا مناص من اعتماده دليلا لذلك مما يفرض على المتلقي قبول الحجة دون محاججة خاصة إذا كان المتلقي مسلما لأن الآية القرآنية بمثابة البرهان القاطع الذي لا يقبل الجدل أو الرفض، أما ما أورده الإبراهيمي من أمثال قوله:

"هذا الجمود في الفقه والفقهاء... أفضى بهم إلى هذه الفوضى الفاشية في البيوت، وإلى ارتفاع الثقة بين الأزواج والزوجات **وزاد الطين بلة** وضع منحرف لمكان الزوجة من زوجها..."[50]

وهو في هذا المقام يحاول أن يدعو المتلقي إلى ضرورة الانتباه إلى ما آلت إليه العلاقات الزوجية من انحلال وتزعزع نتيجة لعدم فهم الدّين فهما صحيحا، فالمثال هنا يدعو المتلقي إلى التفكير والمقياس بين ما يحدث فعلا وما يحمله هذا المثل من دلالات تحذر من نتائج كارثية.

كما عمد البشير إلى ضرب أمثلة من الواقع المعيش كدليل على صحة ما يراه، وذلك في قوله:

"يخرج الرجل إلى السوق... ويتناقش آخر مع صهره... ويتنازع الاثنان الحديث"[51]

لا يقصد الإبراهيمي شخصا معينا بذاته وإنما يجعل من أحداث الواقع مثالا للتّدليل على النتيجة، وفي الوقت نفسه يثبت صفة الكثرة، والشيوع لظاهرة التساهل في الطلاق لأبسط وأتفه الأسباب، فحجة الدليل قائمة من مثال يأخذه المخاطِب من مصادر شتى، وهذه فقط أمثلة منها وليست كلها، فلا يتسع المقام إلا لهذا.

[50] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 299.

[51] المصدر نفسه، ص 299.

5 - خاتمة

في الختام، يمكن أن نجمل أهم نتائج الدراسة اختصارا في الآتي:

1/ عمل البحث على التنويه بمختلف الإستراتيجيات التي يتقيد بها المخاطب أثناء التواصل اللّغوي، والتي يختارها وفق محددات موضوعية وسياقية.

2/ إن الخطاب الإصلاحي في هذه المدونة بوصفه إستراتيجية إقناعية، وأسلوبا حجاجيا يهدف إلى استمالة المتلقي وزرع الرغبة والأمان في نفسه حتى يقبل على التغير.

3/ تميزت الخطب المختارة بثرائها بخصائص تداولية متنوعة، ترجمها وضوح أسلوب الابراهيمي من خلال سعيه لتبسيط أفكاره قد المستطاع.

4/ الحجاج عند البشير الإبراهيمي، نشاط إقناعي يتخذ صورة خطاب إصلاحي تشكله عوامل ذاتية واجتماعية ومعرفية، وتحدده قدرات بلاغية وظفت كل العوامل المتاحة.

5/ استخدام البشير الابراهيمي جلّ الآليات الحجاجية خاصة تلك التي يطلق عليها شبه منطقية، وكذا آليات السلم الحجاجي، وغيرها من الآليات التي جعلت خطبه قوية الحجة، وأكثر قدرة على الإقناع واستلاب المتلقي.

قائمة المراجع:

البشير الإبراهيمي، (1997)، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1.

حافظ إسماعيلي علوي، (2011)، التداولية علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1.

حمدي منصور جودي، (2008/2007)، خصائص الخطاب الحجاجي وبنياته الإقناعية في أعمال البشير الإبراهيمي، دراسة لنماذج نصية مختارة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة.

طه عبد الرحمن، (1998)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1.

عبّاس حسن، (د. ت)، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ج3، ط4.

عبد الهادي بن ظافر الشهري، (2004)، استراتيجيات الخطاب (مقارنة لغوية تداولية)، دار الكتب الوطني، بنغازي، ليبيا، ط1.

محمد أسعد النادري، (2007)، نحو اللّغة العربية، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ط.

أبو يعقوب السكاكي، (1987)، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.